قراءة في تكوين العقل السياسي للإسلاميين

تستمد الحركات الإسلامية أهيمتها من بعدها السياسي ، لأن اتخاذ التدين سلما للوصول للسلطة السياسية ، يستدعي أسئلة طبيعية التكوين السياسي لمكونات الجماعات الداعية للدولة الإسلامية أو ذات المرجعية الدينية ، والخطاب العام للجماعات الدينية ، لايخرج عن ترديد شعارات " الإسلام هو الحل " والإسلام دين دولة " والدعوة للدستور الإسلامي ، وتعضيد ذلك ببعض الآيات القرآنية والأحاديث النبوية . ومع إن الحركات الإسلامية أفلحت نسبيا في التنبيه لمخاطر الاستلاب الثقافي والتغريب والعناية باللغة العربية ، وكذلك إلي حد ما خرجت جماعات وقيادات علي درجة من التدين والتربية عصمتها من قواصم التهتك والإباحية والمسكرات ، ولعل أكبر إنجازات الحركة الإسلامية في السودان ، تصديها للمرتكزات المادية للماركسية ولأدبيات الحزب الشيوعي السوداني ، حتي سقط الحزب الشيوعي في السودان مع حله في عام 1965م قبل أن يسحله المرحوم الرئيس النميري في عام 1971 م وقبل أن يفاصلهم الرئيس السادات في مايو 1970 وقبل سقوط حائط برلين في 1989 وسقوط الحزب الشيوعي في بولندا ثم تلاشي الشيوعية امام الإنفتاح والديمقراطية والسوق الحر في التسعينيات . وهذا لا يقلل من قدرات ووطنية الشيوعيين السودانيين كأفراد .

ولكن من السخريات أن الحركة الإسلامية السودانية استلهمت كثير من مكونات خطابها وطرق تنظيمها من الحركة الشيوعية ، فمثلا اسم " حركة التحرر الإسلامي " أهم نوي تنظيم الأخوان المسلمين في جامعة الخرطوم ، مستمد من الحركة السودانية للتحرر الوطني ، والتكوين الهرمي للخلايات اشبه بخلايا الحزب الشيوعي مع اختلاف المسمي " أسرة " وطبعا هذه كذلك مستمدة من اجتهادات الإمام حسن البنا ومدرسة الإخوان في مصر .

ومن أهم التأثيرات المباشرة ، التحول لجماعة ضغط سياسي ونقابي واتخاذ ذات وسائل الشيوعيين بالتغلغل في النقابات والاتحادات وأجهزة الدولة وتكوين الخلايات النائمة وكتابة المنشورات واتخاذ المظاهرات والكتابة في الحوائط وغيرها من وسائل العمل السري . وحتي الإشتراك في الإنقلابات العسكرية كما فعل المرحوم الاستاذ الرشيد الطاهر بكر المراقب العام للأخوان المسلمين بالسودان في عام 1959م حينما اشرك في انقلابه حتي البعثيين والشيوعيين .

لم تبرز اجتهادات في المسألة السياسية باستثناء محاولات متواضعة لكتابة صيغ للدستور الإسلامي كما فعل صفي الدين هاشم ومحاولات الجبهة الإسلامية للدستور واجتهادات اللجنة الفنية لدستور عام 1968م برئاسة د. الترابي .

لم تبرز اجتهادات ذات أثر في التكوين السياسي العقلي إلا في كتابة دستور الحركة الإسلامية لعام 1980م والتي نصت علي ان الحركة الإسلامية السودانية ، حركة سياسية تسعي لكسب السلطة السياسية عن طريق العمل المترفق والجهاد ، ولكن ربما كان أهم الاجتهادات ما حدث في دنيا المرأة ، وبرز في كتاب صغير كتبه د. الترابي في المرأة بين تعاليم الدين وتقاليد المجتمع ، وهو كتاب حسن التوثيق والمرجعية والتحليل علي صغره ، وتأثرت به معظم الحركات الإسلامية في العالم وترجم للغات كثيرة ، أصبح هذا الكتيب مانفستو للمرأة الإسلامية ، فدخلت الإتحادات والنقابات ، وشاركت في المظاهرات، وتأمرت وتناجت قبل وبعد الاجتماعات، واصبحت عضوا أصيلا في الجماعة، وليست مجرد تابع أو عضو من الدرجة الثانية ن ولكن هذا كذلك كان في باب تحرير المرأة واسترداد وضعيتعها الإسلامية المسلوبة لا اجتهادا سياسيا في وضعية الدولة والقضايا السلطانية ، المتعلقة بالحكم وإدارة الدولة ومغزي الشوري والديمقراطية والمؤسسية .

ومع دستور الحركة الجديد في آفاق المصالحة الوطنية ، برزت استراتيجية التمكين التي عكف عليها د. الترابي والتي شملت ثورة لائحية ومضاعفة عضوية وتقوية مكونات النظام الخاص والمال وبروز المؤسسات الإسلامية الدعوية والمالية , وسبق قيام المؤسسات التأصيل الفكري لها وذلك مازالت المؤسسات المالية الإسلامية في جدل حول وضعية الفوائد وأحكام المعاملات المالية ، ولكن قضية الأجتهاد مسئولية الحركة الفكرية المجتمعية وليس الاخوانية .

ولكن يبقي أساس تكوين العقل السياسي للإسلاميين الخطاب الديني المسجدي والخطاب الديني العام ولكن حتي هذا الخطاب الديني المسجدي والعام غالبا ما يدور حول الإيمان والزهد والرقائق ومقتبسات من التاريخ الإسلامي، لاتكاد تلامس حتي القراءات النقدية للفكر السياسي الإسلامي ، كما هو مثلا عند ابن خلدون أو الفلاسفة الإسلاميين – بل إن الفلسفة الإسلامية تعد أحيانا من الهرطقة ، ولكن في الافتخار والمباهات وبأن الحضارة الإسلامية تصنع العقول يتكلمون عن أبن النفيس والدورة الدمورية وابن خلدون وعلم الاجتماع وابن سيناء والطب دون دراية بأنهم محسوبين في دائرة الهرطقة .

يتكملون أحيانا عن الجمهورية والدستورية ولكن القليل يعرف ماذا يعني الحكم الدستوري، ومن يعرفون لايهتمون ولايكترثون بموافقة الأفعال لنصوص وأحكام ومطلوبات الدستورية ، ولهذا فإن عقل الحريات مشغول بالسمع والطاعة التي تكون احيانا عمياء وليست مبصرة، وباب التفكير الحر ضعيف لذا فإن وضعية حرية التعبير والكتابة وإقامة الندوات والمدافعة منتقصة وإذا كان المجلس النيابي أو جملة مؤسسات الحركة والدولة لا تكترث بهذه المقدمات العقلية ، فهذا نابع من ضمور ثقافة الحرية وقيمتها واهميتها وسط العضوية التي تعلي من وضعية السمع والطاعة. ولو أن الحركة الإسلامية وازنت مابين مطلوبات السمع والطاعة ومتابعة الترتيبات الفكرية والروحية وقيمة التفكير الحر والمدافعة لجنبها ذلك الإنزلاق ولقام حكمها علي شيء من الشوري والمؤسسية ، ومن الغرائب أن مذكرة العشرة الشهيرة كانت في جوهرها حول الأزدواجية والشوري والمؤسسية. ولكن ما أن تم ابعاد د. الترابي الأ وتناسي الموقعين علي المذكرة كل ما قالوه ، وأصبحوا في زمرة النافخين في الشخصنة وحكم الفرد . وإن كانت التربية الفكرية السياسية محدودة في ذهن العضوية – ولأن العضوية ذات تراتيبية مختلفة ، فيها العقل العاطفي والعقل البسيط والعقول المركبة القادرة علي التفكيك والتجميع دائما نادرة وقليلة ، ولكن قيام القيادة عمليا بالغاء التداول السلمي في السلطة ، والتعاقب الدوري للقيادات ، وتقييد حرية الرأي وحرية الصحافة والعدوان علي الحرية الفكرية باسم الدين والمصلحة العامة، أدت إلي شعور اصحاب القدرة علي تأليف الجمل المفيدة بالإنزواء – لذا أصبحت السياسة كتفكير وخطاب ومدارسة ومحاورة غير موجودة في دفاتر الحركة واصبح عضو الحركة لايقاس بمقدراته الفكرية والسياسية وقوة تفكيره وهمته ولكن بقدرته علي الحضور في ميادين الحشد والتعبئة والسمع والطاعة ، والمعلوم أن العقليات الصدئة لا تحب الحقيقة – كما أن المصالح تجب الحقائق .

وفي الخلاصة تبقي اجتهادات الترابي الإضافات الباقية في سجل الحركة الإسلامية حول المراة وكذلك نظرته التوحيدية التي انتهت بنقابة المنشأة بدلا من نقابة الطبقة لأنهاء الصراع وأخيرا نظرية التوالي السياسي التي مثلت نهاية للسياسة في أدبيات الحركة الإسلامية – ثم حاول الشيخ الترابي تجاوز ذلك واستدراكه بكتابه الأخير في فقه الأحكام السلطانية .

والله اعلم .

بروفيسور / حسن مكي محمد أحمد